

الْكُلِّيَّاتُ الْقُرْآنِيَّةُ

بَيْنَ التَّأْسِيسِ الْقَوَاعِدِيِّ وَالْقَوَاعِدِ الْمُؤَسَّسَةِ

الشيخ ليث عبد الحسين العتابي
رئيس شعبة البحوث و الدراسات
في العتبة العلوية المقدسة

فحوى البحث

يشكل البحث قواعد ينطلق منها الباحث لتسهيل استيعاب جملة من العلوم والمعارف القرآنية صاغها الباحث ضمن جامع مشترك اطلق عليه اسم (الكليات القرآنية). ويرى الباحث ان المراد من البحث: توضيح الاسس المهمة في القرآن الكريم ضمن كليات جامعة. و بذلك فقد حاول الباحث الوقوف على ايجاد جامع مشترك لجملة من الموضوعات القرآنية ضمن صياغة قواعدية كلية تسمى (القواعد القرآنية).

مقدمة تمهيدية:

و قواعد مفيدة و مهمة في مجال التشريع و السير و السلوك.

إن من أهم ميزات القواعد القرآنية؛ شموليتها و سعة معانيها. إذ انها - بشكل عام - ليست مختصة بموضوع محدد من حيث كونها قواعد، و إن مواضيعها ليست مختصة بموردٍ خاص من حيث التطبيق.

مع لزوم الالتفات إلى: (أن خصوص سبب النزول لا يخص الحادثة) إذ تبقى للآيات القرآنية عموميتها و عدم محدوديتها.

إن هناك قواعد قرآنية تعالج القضايا الاجتماعية، و قواعد تصحح القضايا الاعتقادية، و قواعد مهمتها ترشيد السلوك، و قواعد أخرى مهمتها تشريعية.

إن الغرض التعليمي يعدّ من أهم الأغراض في القرآن الكريم. فبما ان للقرآن الكريم اغراضاً كثيرة، منها التربوي، و منها التشريعي -على سبيل المثال- إلا أن الجامع المشترك لها كونها قد جاءت بقصد التعليم.

إن القواعد من الأمور التي لا غنى للإنسان عنها، فقد اصبحت الدستور الذي يسير عليه، و المنهج الذي يتخذه سبيلاً في سيره نحو ما يريد و يبتغيه.

فسواء أكانت هذه القواعد صحيحة بأجمعها، أم انها تحمل الخطأ و الصواب، إلا أن المهم -في ذلك كله- بانها تعطي للإنسان نوعاً من الاطمئنان و نوعاً من التسليم ليوصله إلى حد من عدم الممانعة في مسيرته الحياتية.

إن الإنسان و على اختلاف لغته أو معتقده و منذ اقدم العصور يسعى إلى التقنين و التعقيد، فيسعى بما لديه من سطوة و حب هيمنة إلى ان يلزم الآخرين بما وضعه أو اكتشفه أو اخترعه من قوانين و قواعد. فيثيب و يعاقب و يحكم و يتصرف تبعاً لذلك.

و بما ان كل شيء لا يخرج عن قانون يحكمه أو عن قاعدة توضحه، فمن اليقين بأن مصدر التشريع الأول، و المعجزة المحمدية الكبرى، لن يخرج عن عرف العقلاء بما يمتلكه من عموميات و كليات



فـ(الغرض التعليمي) من المرادات الجدية في كتاب الله تعالى، و الهدف الأساس من وراء ذلك هو هداية البشرية جمعاء.

فكيف لنا أن نحدد المراد الإلهي؟
نقول: لولا وجود الأنبياء و الرسل و الأوصياء عليهم السلام، و وجود الكتب السماوية لما استطعنا فهم المراد الإلهي لجملة من أسرار الوجود الكوني و الإنساني.

إن الإنسان أدرك بفطرته و بما آتاه الله تعالى من نعمة العقل أموراً مهمة في هذا الوجود، لكنه لم يستطع معرفة الحقائق و الأسرار المهمة لهذا الوجود.

لقد كان إرسال الرسل و الكتب السماوية من اجل تعليم الإنسان أهمية و غاية وجوده في هذا الكون، و لكي يعرف ما الواجب عليه تجاه كل شيء، بدءاً من نفسه و انتهاءً بخالفه جل و علا.

في بحثنا هذا سنتناول الكليات القرآنية العامة ضمن منهج قواعدي و ذلك لإثارة الكتابات الجادة حول هذا الموضوع المهم والحيوي، والذي لم يكتب

عنه -بحسب تباعي- بشكل تخصصي. ففي هذا البحث القرآني لا أقول بأن ما وصلت إليه هو نهاية المطاف، أو انني اخترعت ما لم يخترعه غيري، هذا من جانب. و من جانب آخر فإن الذي سرت عليه ما هو إلا طريق بحث معرفي غير مخالف لمقتضى العقل و لا لثوابت الشرع الحنيف.

إن هذا البحث يشكل قواعد انطلاق تسهل استيعاب جملة من العلوم و المعارف القرآنية صغناها ضمن جامع مشترك اطلقنا عليه اسم (الكليات القرآنية) فلا يعتقد معتقد باننا قد ابتكرنا ذلك من عن دياتنا لأن المراد هو توضيح الأسس المهمة في القرآن الكريم و ذلك ضمن كليات جامعة، فهذا هو منهج القرآن، الذي جاء لهداية البشرية جمعاء لا يحده زمان و لا مكان.

كان لا بد ان نقف -في بحثنا هذا- عند النصوص القرآنية المهمة و المؤيدة لذلك، معززين أقوالنا بالأحاديث المباركة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و أحاديث أئمة أهل البيت النبوي المبارك عليهم السلام، و



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة **المصباح** •

مستشعدين على جملة من المطالب بأقوال العلماء من أهل الاختصاص. في هذا البحث سوف نحاول الوقوف عند هذا الموضوع المهم ألا وهو إيجاد جامع مشترك لجملة من الموضوعات القرآنية لنضعها ضمن صياغة قواعدية كلية تسمى بـ(القواعد القرآنية).

الكليات القرآنية:

إن الكليات القرآنية قد تكفلت بإرساء الأساس المرجعي الذي ينبثق منه التشريع الإسلامي، وأن الشريعة الإسلامية قد تفصلت فروعها وجزئياتها، بعدما تأصلت أصولها وكلياتها^(١). ومما يجدر التنبيه عليه، كون هذه الكليات ليست على درجة واحدة، لامن حيث كليتها وعمومها، ولا من حيث رتبته وأولويتها، بل بعضها أولى وأعلى، وبعضها دون ذلك، وبعضها أعم وأشمل، وبعضها دون ذلك. وقد يكون بعضها مندرجا في بعض،

(١) أي: أحكمت ثم فصلت.

وبعضها متفرعا عن بعض. وكذلك يقال في الجزئيات، فمنها جزئيات كبرى تنطوي على غيرها، ومنها جزئيات صغرى تنطوي في غيرها. فالجزئيات الكبرى قد تكون بمثابة كليات لعدد كبير من الجزئيات الصغرى، المتفرعة عنها أو المتعلقة بها.

إن للقرآن أساليبه المتميزة في عرض مضامينه وأداء وظائفه، ذلك أنه يخاطب ويعالج الكيان البشري بكل مكوناته وبكل متطلباته دفعة واحدة، ولذلك تمتاز فيه -في الموضع الواحد- عناصر متعددة للخطاب، أو عناصر متعددة للمعالجة، فتجد أسس العقيدة مع جزئيات التشريع، وتجد القصص مع المواعظ، وتجد الحجاج المنطقي مع ذكر الجنة والنار، وتجد مشاهد الطبيعة مع تكاليف العبادة، وهكذا.

و الكليات القرآنية التي هي موضوعنا، يعرضها القرآن الكريم ضمن هذه الأساليب المتنوعة المندمجة. فكثير من هذه الكليات جاء على لسان الرسل والأنبياء ﷺ، أو ضمن



صفاتهم ومواقفهم، أو جاء حكاية عما في كتبهم وشرائعهم. وجميع هذه الصيغ والأساليب مقتضاها: (التعليم والتوجيه والتشريع).

وكثير من الكليات القرآنية جاءت في صيغ وصفية لأحوال ونماذج من الناس. وهي إما تذكر صفاتهم المحمودة والممدوحة، لأجل الاتباع والافتداء، أو صفاتهم المذمومة والمستنكرة، لأجل الاجتناب والانتهاء.

قد تأتي الكليات القرآنية بصيغ خبرية تقريرية، على شكل مبادئ وقواعد كما في الآيات:

قال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢].
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

وقد تأتي الكليات القرآنية أيضا بالصيغ الصريحة للأمر والنهي (أوامر كلية ونواهٍ كلية).
فمن الأمر:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الأعراف: ٢٩].

و قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

ومن النهي:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

و قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَمْثَالَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٨٣].

إن الكليات الأساسية يراد بها المعاني والمبادئ والقواعد العامة المجردة، التي تشكل أساساً لما ينبثق عنها من تشريعات تفصيلية وتكاليف عملية.

إن المراد بالكليات القرآنية: القواعد والأحكام العامة التي تنطبق على مجالات و أبواب متعددة و على جزئيات غير منحصرة.

لقد وردت ضمن هذه الكليات بعض الأحكام الأساسية في التشريع



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة (المصباح)

فإن مصطلح (الكليات) هو المصطلح المقابل لمصطلح (الجزئيات).

لقد بدأ نزول القرآن الكريم بالآيات المحكمات الكليات التي كانت سابقة على آيات الأحكام التفصيلية؛ فالقرآن المكي اهتم بالدرجة الأولى بالكليات الأساسية و المبادئ العامة للشريعة الإسلامية، ثم نزل بعد في المدينة تفصيل أحكام الشريعة.

المقصود بـ(كليات القرآن) تلك التي تتحدث عن أمور كلية، تتعلق بجانب التصور و الاعتقاد و الأخلاق و السلوك. أو بعبارة أخرى: هي المعاني و المبادئ و القواعد العامة المجردة التي تشكل أساساً و منبعاً لما ينبثق عنها و يبنى عليها من تشريعات تفصيلية و تكاليف عملية و أحكام و ضوابط تطبيقية.

و قد جاءت (كليات القرآن) كي تحدد القيم و المثل، و تنشئ تصوراً عاماً للكون و الحياة، و تبين الغايات و المقاصد العامة التي يسعى التشريع لتحقيقها في حياة الناس، و في الوقت

الإسلامي، لكونها ممتزجة ببعض الكليات العامة، و أيضاً لأن بعض العلماء يسمونها أحكاماً كلية نظراً لأهميتها و سبقها في نزول التشريعات الإسلامية^(٢).

إن الأصل في الأحكام العامة بشكل أخص و الأحكام الشرعية بشكل خاص المذكورة في القرآن الكريم أنها جاءت للعموم، إذ ان التخصيص يحتاج إلى مؤنة زائدة.

إن صياغة (القواعد الكلية) هو فن يمكن العقل من تجاوز الإغراق في الجزئيات و التفاصيل.

إن (القواعد الكلية للقرآن الكريم) مختصرة سهلة ميسرة، تلائم مقاصد القرآن التيسيرية، و لكنها ليست مبسطة و لا مختزلة و لا أيقونية.

إن مصطلح (الكليات) عموماً، بقصد به؛ المعاني و القواعد العامة المجردة، التي تشكل أساساً لما ينبثق منها، و يبنى عليها من الجزئيات، و عليه

(٢) مثل: الوصايا العشر في سورة الأنعام و أواخر سورة الفرقان.



نفسه وَصَّحَتْ تلك الآيات أمهات
المفاسد، و أصول الانحرافات التي
تهدد حياة الإنسان، من عقدية و فكرية
و نفسية و سلوكية.

على العموم يمكن القول: إن
(الكليات القرآنية) قد تكفلت بإرساء
الأساس النظري و الإطار المرجعي،
الذي ينبثق منه التشريع الإسلامي،
و ان الشريعة الإسلامية قد تفصلت
فروعها بعد ما تأصلت كلياتها.

إن الكليات القرآنية منها ما جاء
منصوصاً عليها بعبارات جامعة في آية،
و منها ما جاء في جزء من آية و هذا
كثير، و منها ما جاء ضمن مجموعة من
الآيات المتضمنة لعدة معاني و أحكام
كلية.

و كثير من الكليات القرآنية جاء
في صيغ وصفية لأحوال و نماذج من
الناس؛ أما بذكر صفاتهم الممدوحة
لأجل الاتباع و الاقتداء.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا
يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [سورة الرعد: ٢٠].
و قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ①

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ
هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ
لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ
⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[سورة
المؤمنون: ١ - ١١].

و أما بذكر صفاتهم المذمومة و
المستنكرة لأجل الاجتناب و الابتعاد
عنها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِتَابَ الْإِنشَاءِ
وَالْفَوْحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾
[سورة الشورى: ٣٧].

و قد تأتي الكليات القرآنية بصيغ
خبرية تقريرية، على شكل مبادئ و
قواعد، و تأتي أحياناً بصيغتي الأمر و
النهي.

ثم ان مصطلح (الكليات) يقابل
مصطلح (الجزئيات)، حيث ان الجزئيات





الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة **المصباح** •

هي: كل ما يأتي تفصيلاً و تطبيقاً للكليات، سواء أكان ذلك منصوباً عليه، أم مجتهداً فيه تنزيلاً و تطبيقاً.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ

بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل: ٩٠].

فهذه الآية الكريمة أصل كلي يأمر

بالتزام العدل عموماً، و الإحسان إلى

الغير، لكن قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالَيْنِ

إِحْسَانًا﴾ [سورة البقرة: ٨٣].

هو تفصيل لهذا الكلي، و كذلك

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

[سورة البقرة: ٨٣].

ايضاً تطبيق لهذا الكلي.

و (كليات القرآن) خير معين

للمفسر على تفسير كتاب الله، و

فهمه فهماً دقيقاً من حيث التقييد و

التخصيص، كما أنها عون للفقهاء من

أجل الاستمداد منها فيما لا نهاية له

من القضايا و المستجدات التي تطرأ

على حياة الناس، و هذا مما امتازت

به شريعة الإسلام على غيرها من

الشرائع.

لقد جاءت (كليات القرآن)

لتحدد القيم و المثل، و لتنشئ تصوراً عاماً للكون و الحياة، و تبين الغايات و المقاصد العامة التي يسعى التشريع لتحقيقها في حياة الناس، في الوقت نفسه وضحت تلك الآيات أمهات المفاسد، و أصول الانحرافات التي تهدد حياة الإنسان، من عقائدية و فكرية و نفسية و سلوكية، و على العموم يمكن القول: إن (الكليات القرآنية) قد تكفلت بإرساء الأساس النظري و الإطار المرجعي، الذي ينبثق منه التشريع الإسلامي، و أن الشريعة الإسلامية قد فصلت فروعها بعدما تأصلت كلياتها.

ثم إن مصطلح (الكليات) هنا مقابل لمصطلح (الجزئيات) حيث إن الجزئيات هي: كل ما يأتي تفصيلاً و تطبيقاً للكليات.

إن الأخبار تؤكد على أن الله تعالى لم يدع شيئاً يحتاج إليه العباد إلا أنزله في الكتاب، أو جاء في السنة المباركة.

فعن حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

سمعتة يقول: ((ما من شيء إلا و فيه

كتاب أو سنة)) (٣).

و عن مُرازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((إن الله تبارك و تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى و الله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا و قد أنزل الله فيه)) (٤).

و عن المعلى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((ما من أمر يختلف فيه اثنان، إلا و له أصل في كتاب الله و لكن لا تبلغه عقول الرجال)) (٥).

أنواع القواعد القرآنية:

إن للقواعد القرآنية ضمن بحث (الكليات القرآنية) أنواعاً موزعة بحسب طبيعة و موضوعات الآيات القرآنية المباركة و التي يمكننا تقسيمها بالشكل الآتي:

١. القواعد الفطرية:

فالفطرة الإنسانية -عموماً- واحدة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً

(٣) الكافي، ج ١، ص ٥٩، ح ٤.

(٤) الكافي، ج ١، ص ٥٩، ح ١.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠، ح ٦.

فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿سورة الروم: ٣٠﴾.

إن في الإنسان حاجات فطرية عامة، كما و ان هناك حاجات خاصة، إلا انها جميعاً تعتبر حاجات فطرية إنسانية. كما و توجد ملامح عامة تبين طبيعة هذه الحاجات الفطرية أوردتها آيات القرآن الكريم منها:

١. الهلع، و الجزع، و المنع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۖ ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ۖ﴾ [سورة المعارج: ١٩ - ٢١].

فالآلف و اللام الداخلة على الأوصاف، و أسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.

و مثاله الآيات المتقدمة من سورة المعارج المباركة، إذ أن هذا عامٌ بجنس الإنسان، فكل إنسان هذا وصفه، إلا من استثنى الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا

الْمُصَلِّينَ﴾ [سورة المعارج: ٢٢].

٢. اليأس:



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة (المصباح)

الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل^(٧).

٤. القتر (البخل):

و قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ

خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ

الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسُنُ قَتُورًا﴾ [سورة

الإسراء: ١٠٠].

(و جملة و كان الإنسان قتورا حالة

أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي

تفيد تذييلاً؛ لأنها عامة الحكم، فالواو

فيها ليست عاطفة. والقتر: الشديد

البخل، مشتق من (القتر) وهو التضييق

في الإنفاق^(٨).

٢. القواعد التشريعية:

إن المراد بالكليات التشريعية،

المبادئ والقواعد الكلية المتضمنة

والمنتجة للأحكام العملية، فهي

بالدرجة الأولى وضعت قواعد لضبط

السلوك والتعامل البشري وما يحتاجه

من تحليل وتحريم وإيجاب وإباحة.

و الكليات التشريعية: هي التي تتعلق

بأفعال العباد من حقوق و واجبات، و

و قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ

أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾

[سورة الإسراء: ٨٣].

(و دل قوله كان يئوسا على قوة

يأسه، إذ صيغ له مثال المبالغة، وأقحم

معه فعل «كان» الدال على رسوخ

الفعل، تعجيباً من حاله في وقت مس

الضر إياه، لأن حالة الضر أدعى إلى

الفكرة في وسائل دفعه، بخلاف حالة

الإعراض في وقت النعمة، فإنها حالة

لا يستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من

النعمة^(٦).

٣. الجدل:

و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي

هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ

الْإِنْسُنُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة

الكهف: ٥٤].

(المراد هنا مطلق الجدل، وبخاصة

ما كان منه بالباطل، أي أن كل إنسان

في طبعه الحرص على إقناع المخالف

بأحقية معتقده أو عمله، وسياق

(٧) التحرير و التنوير، ج ١٦، ص ٣٤٩.

(٨) التحرير و التنوير، ج ١٦، ص ٢٢٤.

(٦) التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور، ج

١٦، ص ١٩٣.

• البصيرة

الشيخ ليث عبد الحسين العتاي

تقنينها بالدستور الإلهي العام و الشامل لكل بني البشر، ضمن مورد الطاعة العام، و هناك تقنين خاص بالأديان السماوية من خلال وضع الملامح العامة و الأساسية للعبادات و من ذلك الدين الإسلامي الذي وضع دستوراً في تقنين افعال العباد بما يختص بالصلاة و الصوم و الحج و الزكاة و باقي العبادات، و ما يتعلق بها من وجوب و حرمة و أحكام أخرى.

إن (التشريع الإسلامي في اتجاهاته العامة و خطوطه يتأثر و ينبثق و يتفاعل مع وجهة النظر القرآنية و الإسلامية إلى المجتمع و عناصره و أدوار هذه العناصر و العلاقات المتبادلة بين الخططين)^(٩). أي: خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، و خط علاقات الإنسان مع الطبيعة.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة المائدة: ٩٢].

(٩) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ص ١٨٥.

و قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٧].

و قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [سورة المائدة: ٩٠-٩١].

و قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَيسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسية **المصباح** •

هذه العلوم في اللحظات الأولى للنزول القرآني^(١٠).

فما يختص بالقضايا التشريعية قد تناولته الكتب المختصة بآيات الأحكام^(١١)، و استفيد منه في علمي الأصول و الفقه الإسلامي تنظيراً و تطبيقاً.

و المراد بآيات الأحكام: ما ورد في القرآن الكريم من الآيات القرآنية التي تتضمن الأوامر والنواهي وغير ذلك من الآيات، و التي تتضمن حكماً شرعياً بنصها، أو بدلالاتها، أو بسياقها. و لقد تعارف عند العلماء إطلاق أحكام القرآن؛ على أحكام القرآن العملية، الفرعية، المعروفة بالفقهية. فالمراد بآيات الأحكام -عند الإطلاق- هي: (الآيات التي تُبين الأحكام الفقهية وتدل عليها نصاً أو استنباطاً).

هذا هو المشهور والمعروف عند التصنيف والدراسة والإطلاق، ولكن

(١٠) محاضرات في تفسير آيات الأحكام، عبد الأمير كاظم زاهد، ص ٢٤.
(١١) للمزيد: تراجع الكتب المختصة بعلم آيات الأحكام و ما يختص بها.

الطَّيِّبَتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

[سورة المائدة: ٣-٥].

و (المضمون التشريعي الذي وضع قواعد السلوك الفردي، و المجتمعي، و الدولي تحت قاعدة الحلال و الحرام، و التي نتج عنها علم آيات الأحكام، ثم الفقه الإسلامي، ثم منهج ذلك الفقه المسمّى بأصول الفقه، و قد ترادف معها حشد من الأحاديث النبوية و الروايات عن أئمة أهل البيت المعصومين سلام الله عليهم أجمعين الشارحة و المبينة لتلك الآيات التي اندرجت تحت عنوان أحاديث الأحكام، و تهيكّل العلم بالقواعد الاجتهادية، و مورست



هناك من العلماء من جعل أحكام القرآن - المستخرجة من الآيات القرآنية - غير مختصة بالجانب الفقهي - فقط - بل أدخل مع الأحكام الفقهية الأحكام الاعتقادية والسلوكية والأخلاقية.

أن تاريخ الفقه والتشريع الإسلامي ينماز بميزة مهمة لا بد للباحث أن يلتفت إليها ألا وهي: (أن تاريخه يرتبط بتاريخ التفسير والحديث، فالفقه الإسلامي يستمد مادته من المصدرين الأساسيين: الكتاب والسنة، ولذا لا يمكن الفصل بينهما. وفي ضوء ذلك يلزم بمن يدون تاريخ الفقه الإسلامي، الإمام بتاريخ نزول القرآن وأسبابه، وتصنيف آياته موضوعياً: طائفة تستهدف بيان المعارف العقلية، وأخرى تستعرض قصص الأنبياء وسيرتهم وجهادهم المشركين، وثالثة تبين الأحكام الشرعية التي تدور عليها رحي الفقه.

ثم إن مصادر التشريع والمنابع التي يستنبط منها الفقه ليست أمراً متفقاً عليه بين كلا الفريقين، فهناك منابع و

مصادر اتفقت عليها الكلمة، وهناك منابع تختص بطائفة دون أخرى، فالسنة تعتمد مثلاً القياس والاستحسان في عملية الاستنباط في حين تنكرهما الشيعة الإمامية، فصار هذا باعثاً للباحثين في تاريخ التشريع الإسلامي إلى تخصيص فصول في هذا المجال بغية بيان مصادر التشريع الأصلية والتبعية..^(١٢)

لا بد من فهم حقيقة النظام التشريعي الذي جاء لتقنين حياة الإنسان ومسيرته، وجاء لتنظيم علاقاته مع خالقه، ومع الآخرين، ومع كل ما حوله، وهذا التقنين والتشريع في بعض الأحيان - أن لم يكن الأكثر - يعتبره الإنسان تقييداً له وحداً لحريته، إلا أنه لو فهم أنه يضمن له حقوقه وإنسانيته ويكسبه مزيداً من الاحترام والاستقلالية التي قننت ضمن قواعد وقوانين هدفها خدمته وضمان كرامته.

(... فتشريع النظام وتنظيم الشريعة

ضروري في حياة الإنسان، و حياة

(١٢) تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، جعفر السبحاني، ص ١١-١٢.



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة • المصباح

الإنسان الذي يريد أن يحيا حياة إنسانية بمعناها الحسن الجميل. ثم -يا ترى -أترى الإنسان -و الحال فيه هو ذلك الحال -يرضخ لتلك الشريعة الموقفة له عند حدود، و يخضع لذلك النظام المحدد لتلك الحرية المطلقة فيه المؤيدة بالعواطف و الأهواء؟. الجواب: لا.

اللهم إلا أن يفهم فيفهم حاجته الماسة إلى ذلك النظام، و أن مشروع ذلك النظام ممن له أهلية ذلك التشريع فهو مشرع بحق و منظم باستحقاق، ثم هي الأخرى أن يفهم فيفهم أن ذلك النظام و ذلك التشريع نظام بعدل و اعتدال يرمي إلى العدل و الاعتدال لا سرف فيه و لا تطيف. إذن فالتساق التشريع أو النظام و استوساقه بحاجة إلى أن يركز على دعائم ثلاث:

ذلك النظام و إلا لم يرضخ الرضوخ المطلوب، و لم يستجب لذلك النظام، و لم يتمسك بذلك التشريع. ثالثها: اعتقاد المكلف بعدل النظام و اعتداله و أنه لا سرف فيه و لا تطيف..(١٣).

لا شك في أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية المقدسة، و أن ما بين الدفين و المتداول -إلى حال الحاضر- بين المسلمين منذ عهد النبي ﷺ لم يزد فيه و لم ينقص منه. فمن خصائص هذا الكتاب الإلهي:

١. أنه نزل باللغة العربية. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢]. و قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر: ٢٨].

٢. فيه أخبار ما سبق و ما سيأتي. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): ((كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، و نبأ ما بعدكم، و هو الفصل

(١٣) القرآن و العقيدة أو آيات العقائد، مسلم حمود الحسيني الحلي، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

احدها: قناعة المكلف قناعة نفسية بحاجة إلى تنظيم شرع و تشريع نظام و إلا دفعت به الحرية المطلقة إلى الهوة السحيقة و المهوى العميق.

ثانيها: الإيمان بأهلية المشروع لذلك التشريع، و الاعتقاد بأحقيته في وضع

ليس بالهزل...) (١٤).

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ [سورة غافر: ٧٨].

٣. اشتمل القرآن الكريم على آيات تضمنت القواعد العامة في التشريع وبعض الأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

وهذا لا يعني أنه يحيط بكل جزئيات الوقائع و الحوادث و تفصيلاتها، بل هو تبيان من حيث احاطته بأصول و قواعد و كليات عامة، و التي تعتبر الأساس في كل قانون أو نظام.

(١٤) مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث و الآثار، ابن أبي شيبة، ج ٧، ص ١٦٤.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ((إن الله تبارك و تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى - و الله - ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا و قد أنزل الله فيه)) (١٥).

قال الشيخ الطبرسي رحمه الله (١٦) في تفسير قوله تعالى ﴿ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (أي بياناً لكل أمر مشكل و معناه ليبين كل شيء يحتاج إليه من أمور الشرع فإنه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر من أمور دينهم إلا و هو مبين في الكتاب أما بالتنصيص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي صلى الله عليه و آله و آله و سلم الحجة القائمين مقامه أو إجماع الأمة فيكون حكم الجميع في الحاصل مستفاداً من القرآن) (١٧).

٣. القواعد العقديّة:

(١٥) الكافي، الكليني، ج ١، ٥٩، ح ١.

(١٦) الشيخ الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري.

(١٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، ج ٦، ص ٥٨٦.



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة **المصباح**

يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء... و مع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، و الأمن من الأذى و الفتنة... و إلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة^(١٨). و هناك جملة من الآيات القرآنية التي اوردت جملة من القضايا العقائدية المهمة في حياة الإنسان، و من جملة هذه الآيات المباركة:

١. في مسألة التوحيد:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾
اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٣
 [سورة الإخلاص: ١-٤].

٢. في مسألة أرسال الرسل:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف: ٩].

٣. في مسألة الجزاء و الآخرة و المعاد:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

(١٨) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ١، ص ٢٩١.

إن المقصود بالكليات العقائدية أو الاعتقادية: المرتكزات الأولية للدين، اذ هي أولية في الفطرة وفي العقل والنقل.

و المقصود بالكليات العقائدية: هي التي تتعلق بذات الله تعالى المقدسة، و صفاته، و افعاله، و الإيمان به، و برسله، و ملائكته، و التي يجمعها علم (أصول الدين) و الذي تشكله -قرآنياً- آيات العقيدة التي نشأ عنها علم العقيدة، أو علم الكلام.

ف(قضية العقيدة -كما جاء بها القرآن- قضية اقتناع بعد السياق و الإدراك، و ليس قضية إكراه و غصب و إجبار، و لقد جاء القرآن يخاطب الإدراك البشري بكل قواه و طاقاته... في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلجاءً إلى الإذعان، و لكن وعيه لا يتدبرها و إدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي و الإدراك... إن حرية الاعتقاد تعدُّ أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان» فالذي

• البَصَائِح

..... الشيخ ليث عبد الحسين العتاي

وَلَا فُسَادًا وَالْعَقِبَةُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٦٠﴾ [سورة القصص: ٨٣].

و قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ﴿٦١﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٦٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٦٣﴾ [سورة الزلزلة: ٦ - ٨].

اما في أهم المباحث العقائدية ألا و هو دليل وجود الله تعالى نقول:

إن الله سبحانه و تعالى في محكم كتابة الكريم قال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ [سورة فاطر: ١٥ - ١٦].

لا ريب أن فقر الشيء دليل قاطع على احتياجه إلى (غني قوي) يزيل حاجته، من هنا لا بد أن يكون لهذا الكون بأسره من أفاض عليه نعمة الوجود.

إن الظواهر الكونية من الذرة إلى المجرة، أي السماوات والأرض وما فيها هي جمادات فقيرة في ذاتها، كانت لا شيء ثم وجدت فهي مسبوقة بالعدم،

فلكي توجد لا بد من موجد لها لأنها لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، وهذا الموجد لها لا بد وأن يكون غنياً عنده القدرة على إيجادها ليخرجها من العدم إلى الوجود. و الإنسان يدخل ضمن هذه القاعدة، فإنه في ذاته فقير ليس غنياً أي لا يقدر أن يوجد نفسه بنفسه بل يحتاج إلى قوة أكبر منه توجده.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ [سورة فاطر: ١٥].

لقد ركز القرآن الكريم في مواضع متعددة على صفة (الغني) في الذات الإلهية المقدسة بحيث يمكن اعتبار ذلك إشارة ضمنية أو صريحة إلى هذا البرهان، أي برهان الفقر، ومن هذه الآيات المباركة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴿٣٨﴾ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴿٣٩﴾ [سورة محمد: ٣٨].

٤. القواعد الأخلاقية:

و هي التي تتعلق ببيان الفضائل و المحاسن التي يجب أن يكون عليها الإنسان، و بيان الرذائل التي يجب عليه الاجتناب عنها.



و لا أظن أننا نحتاج إلى أي استثناء أو استدراك إذا قلنا: كل ما هو خلق، أو صفة خلقية، فهو كلي، فالأخلاق بطبيعتها قضايا كلية. فكل خلق يمثل نمطا في السلوك ومنهجاً في الحياة، أي أن كل خلق هو قاعدة سلوكية كلية. والأخلاق هي الخصال النفسية المعبر عنها بواسطة السلوك العملي المستمر. فلا بد في الأخلاق من تحقق هذين الجانبين: الجانب النفسي والجانب العملي.

فالجانب النفسي يتضمن الرسوخ الباطني للخلق والافتناع بقيمته وفائدته. والجانب العملي، هو الترجمة والثمرة الفعلية للإيمان بالخلق والرغبة فيه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُكَ رَبُّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: ١٣١].

و قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النور: ٢٧-٣٠].

و قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤].

نعم، فلقد ذهب جملة من العلماء إلى التفريق بين لفظ (الخلق) بصيغة الإفراد، و لفظ (الأخلاق) بصيغة الجمع. فالخلق: طبيعة أولى ملازمة للنفس يفطر عليها الإنسان و يصدر عنها خلق كل فرد في أفعاله.

و المراد بالأخلاق: جملة قواعد السلوك المتعارف عليها في محيط إنساني معين و امتداد زماني محدود، و هذه القواعد تفترض أن يتكيف معها الجميع بقدر الوسع لضرورة انتظام أحوال



الاجتماع الإنساني و جريانها على نسق مقبول، و هذا النسق هو الأصل في القوانين و الأعراف و المواضعات الإنسانية.

لذا قيل: بأن النظام التربوي الأخلاقي القرآني يتأسس على خمسة عناصر هي: (الإلزام، و المسؤولية، و الجزاء، و النية، و الجهد، و تلکم هي العمدة الرئيسة لكل نظرية أخلاقية واعية بمراميها)^(١٩).

إن مُسمّى (الأخلاق) يشمل حَسَنها و قبيحها معاً، فحَسَنها أخلاق، و السيء منها أخلاق. إلا أن لفظ (الأخلاق) -أو الخُلُق- إذا أُطلق بلا وصف ولا تقييد، فغالبا ما يراد به الأخلاق الحميدة ونظراً للتلازم القائم بين كل خلق وما يخالفه، أو يضاده، فإن الحديث عن الأخلاق بمعناها الحميد الإيجابي، يكون متضمناً -تلقائياً- للوجه الآخر المضاد أو المنافي. فكل حديث -مثلاً- عن حسن الخلق،

(١٩) دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص ٦٨٥.

فهو-صراحة أو ضمناً- حديث عن سوء الخلق. وكل حديث عن الأمانة، فهو ضمناً حديث عن الخيانة. وكل ما يقال عن الصدق، يكون مستحضراً لضده ولما يمكن أن يقال في ضده، وهو الكذب. وكذلك لو عكسنا الأمر، فجرى الكلام ابتداءً عن سوء الخلق، أو عن الخيانة، أو عن الكذب، وهكذا. ومعلوم أن لدى الإنسان القابلية للتخلق بالأخلاق الإيجابية الحميدة وبأضدادها معاً. غير أن الأخلاق الحميدة هي بدون شك أسبق وأكثر رسوخاً وأصالة في النفوس البشرية من أضدادها.

٥. القواعد ذات الطابع العام:

و نريد بها القواعد التي ذكرت لتبيين الأمور الخاصة بالقدرة الإلهية و التي لا تدخل ضمن ما تقدم من القواعد إلا من باب الاستشهاد أو التأييد، و هي مقسمة بحسب تقسيات و تصنيفات كثيرة منها:

أولاً: العلمية:

قال تعالى: ﴿الْمُرْتَدَّانَ اللَّهُ يُزْجِي سَكَبًا



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة المصباح

يقول السيوطي: (اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن.. فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشرة معشاره فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الرصف والنظم، وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم وجنس آخر عن أجناس خطابهم حتى إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه، وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكل وسامعه لا يمل وإن تكررت عليه تلاوته، وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية، وقال آخرون: هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع، وقال

ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَفَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا
مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ
﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى
بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿سورة النور: ٤٣- ٤٥﴾.

و قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَحْرِي
لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ
الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿سورة يس: ٣٨- ٤٠﴾.

لقد كثر القول بين العلماء في وجوه الإعجاز في القرآن وتنوع هذه الوجوه وتعددتها، وأيا كان ذلك القول فالقرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى، فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه، ومعجز في بيانه ونظمه، ومعجز بعلومه ومعارفه، ومعجز في تشريعه وصيانيته لحقوق الإنسان.



آخرون: هو كونه جامعاً لعلوم يطول شرحها ويشق حصرها^(٢٠).

و يقول الزركشي^(٢١) في كتابه (البرهان): (أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده، فإنه جمع ذلك كله فلا معنى من نسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع)^(٢٢).

إن بحث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يعتبر من أهمّ الأبحاث في علوم القرآن، وهو من الأبحاث التي تعرّض لها العلماء قديماً، ولا يستغني عنها أي باحث في علوم القرآن الكريم، وقد ذكر هذا البحث أيضاً في علم الكلام عند التعرّض للأنبياء^{عليه السلام}، وإن بعض الأنبياء^{عليه السلام} كان لديهم بعض المعجزات بما يتناسب مع عصرهم، فاضطر علماء الكلام للدخول في بحث المعجزة

(٢٠) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ١، ص ١٠٨.

(٢١) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي المصري (ت ٧٩٤ هـ).

(٢٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج ٢، ص ١٠٦.

من جهة اقتران هذا البحث بالنبوة وضرورتها وعلامتها، وأما في علوم القرآن فالتعرّض للإعجاز كان بما يتناسب مع القرآن الكريم وأنه معجزة النبي الأكرم^{عليه السلام}، وأنه النبي الخاتم، و أن رسالته خاتمة الرسالات، فمن الطبيعي جداً أن يأخذ بحث الإعجاز القرآني مكانة خاصة في هذا العلم، بل في كل الموارد القرآنية.

و يراد بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم: وجود آيات تشير إلى حقائق علمية تحرض على التطلع و البحث و التنقيب.

كما و قد يقصد به كما يقال: (إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي، و ثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول^{عليه السلام})^(٢٣).

لا بد من الإشارة - هنا - إلى أنّ المعجزة لا تلغي قانون العلية ولا

(٢٣) بحث: الإعجاز العلمي تأصيلاً و فهماً، عبد المجيد الزنداني، مجلة الإعجاز العلمي، عدد يوليو ١٩٩٥، ص ١٤٠.



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة (المصباح)

تخرج عنه، وإنما هي تستند إلى علة غير العلل المعروفة والطبيعية عند البشر. ولو كانت إلغاء لقانون العلية لاستحالت عقلاً، وعندئذ يسقط عنصر مهم من عناصر المعجزة.

فولادة إنسان من غير أب لا يستحيل فرضاً، لأن خالق الإنسان الذي أوجده وخلق من طين ابتداءً إذ بإمكانه خلقه من غير أب بالأولوية، لكن المعتاد في الأسباب والقوانين الطبيعية أن يولد الإنسان من أبوين، فإذا ولد النبي عيسى عليه السلام من غير أب كان خرقاً لنواميس الطبيعة المتعارفة والمعتادة، لكن علة الخلق وأسبابه محفوظة. وهكذا بالنسبة لكلامه عليه السلام في المهدي وإحيائه الموتى وأمثال ذلك.

إن حقيقة الإعجاز قائمة في كون المعجزة فوق قدرة البشر، وإعجاز القرآن الكريم من هذا القبيل، حيث إنه على مستوى البلاغة وغرابة النظم والأسلوب العجيب وما تضمنه من معارف عالية وأخبار بالأمور الغيبية والتي تشكّل في مجموعها معجزة، بل

يمكن القول بأن القرآن الكريم في كل واحد من هذه الجوانب بلغ حد الإعجاز.

إن هناك جوانب إعجازية أخرى تتمثل في الاختبارات الغيبية والكشف عن الجوانب الخفية من قصص الأنبياء عليهم السلام والأمم السالفة، والإشارات العلمية، والحديث عن أسرار الكون بما لم يكن معروفاً عند علماء الطبيعة والفلك آنذاك فضلاً عن عامة الناس من السواد الأعظم.

ثانياً: التاريخية:

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [سورة يوسف: ٣].

و قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [سورة طه: ٩٩].

لقد أحتوى القرآن على تفصيل تاريخي لسيرة حياة الأنبياء والمرسلين السابقين عليهم السلام وهو التاريخ الذي لم يكن يعرف العرب عنه شيئاً سوى الأخبار

والرهبان، وكانوا على خلاف فيما بينهم، أما أمة العرب فقد كانوا أميين^(٢٤) لا يعلمون شيئاً عنه، فلما جاءهم النبي محمد ﷺ بتاريخ الرسل والأنبياء مفصلاً، أعترف به بعض هؤلاء الرهبان والأخبار وصدقوه فيما روى عن ربه جل و علا. فخرجوا من دينهم و اتبعوا النبي محمد ﷺ إيماناً و تصديقاً و طاعة لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْقِيبِ ﴾ [سورة هود: ٤٩].

إن هناك قسماً كبيراً من الآيات القرآنية أختص بنقل قصص و وقائع الأمم السالفة، فلا شك أن عرض هذه القصص لم يكن للسرد فقط، بل لأجل اغراض اسمى و أكبر، فقد جاءت هذه القصص -بشكل عام- لأخذ العبرة و

(٢٤) اختلف في معنى أمة العرب، و هل المراد بذلك: انهم أمة لا تملك كتاباً سماوياً، أو انها أمة لا تقرأ و لا تكتب، أو غير ذلك من التفسيرات، و التي أوردها المفسرون و غيرهم.

للحصول على العلم و المعرفة و التجربة المفيدة من بين ثنايا هذه القصص لأجل الاستفادة منها في مسيرة الحياة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الروم: ٤٢].

فهذا أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل، حيث خربت ديارهم، و عفت آثارهم، و بادوا عن آخرهم، و انقطع دابرهم، بأنواع من النوائب و البلايا، كان أكثرهم مشركين، فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد^(٢٥).

و قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [سورة غافر: ٢١].

الاستفهام في الآية إنكاري، و المقصود هو انه لماذا لا يسير هؤلاء

(٢٥) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج ١١، ص ١٩٧.



ذكر من أمر الفن القصصي، حق غير أن ذلك غير منطبق على حالة القرآن الكريم، فليس القرآن كتاب تاريخ و لا صحيفة من صحف القصص الخيالية، و إنما هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و قد نص على أنه كلام الله سبحانه، و أنه لا يقول إلا الحق، و أن ليس بعد الحق إلا الضلال، و أنه لا يستعين للحق بباطل، و لا يستمد للهدى بضلال، و أنه كتاب يهدي إلى الحق، و إلى صراط مستقيم، و أن ما فيه حجة لمن أخذ به، و على من تركه في آيات حجة لا حاجة إلى إيرادها، فكيف يسع لباحث يبحث عن مقاصد القرآن أن يجوز اشتماله على رأي باطل، أو قصة كاذبة باطلة، أو خرافة، أو تخيل... إنه كتاب يدعي لنفسه أنه كلام إلهي موضوع لهداية الناس إلى حقيقة سعادتهم، يهدي بالحق و يهدي إلى الحق و من الواجب على من يفسر كتاباً هذا شأنه و يستنطقه في مقاصده و مطالبه،

تفسير الميزان (١٩٠٤ - ١٩٨٢ م) عالم و مفسر و فيلسوف شيعي كبير.

الناس الذين أرسلنا إليهم الرسول في الأرض فينظروا نظر التفكر و الاعتبار، كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، و كيف أخذهم الله بسبب تكذيبهم الأنبياء^(٢٦).

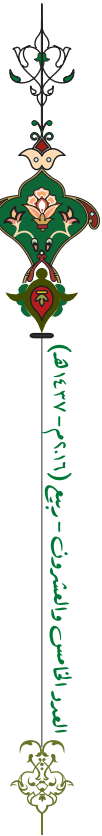
نعم، إن هناك تخرصات مشككة بالقصص القرآني صاغها جملة من المشككين من أمثال (أمين الخولي) و محمد أحمد خلف الله.

ف نجد أن أمين الخولي يقول: (و بهذا التفريق بين العرضين - الفني و التاريخي - للحادثة و الواقعة تبين في وضوح قريب أن عرض القرآن لأحداث الماضين، و وقائع حياتهم، و الحديث عن تلك الأحداث، و الأشخاص ليس إلا العرض الفني الأدبي.. لا العرض التاريخي التحقيقي)^(٢٧).

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي^(٢٨) رحمه الله: (هذا خطأ فإن ما

(٢٦) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.
(٢٧) القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، عبد الخطيب عبد الكريم، ص ٧٦ - ٢٨٠.

(٢٨) السيد محمد حسين الطباطبائي، صاحب



أن يفترضه صادقاً في حديثه مقتصرًا على ما هو الحق الصريح... (٢٩).

إن هناك من يقول: (إن القرآن يحمل هدفًا مقدسًا، فهو يذكر قصصاً لأجل الدرس و العبرة، و ليس لمجرد عرض التاريخ، و لذا لا فرق لديه بين أن تكون تلك الوقائع التي ذكرها قد حدثت فعلاً أو لا، كما في الكثير من كلمات الحكماء عندما يذكرون الكثير من الحكمة و العبرة على لسان بعض الحيوانات، كقصص كليلة و دمنة، و عليه فلا ضرورة للعناء في تحليل أن قصص القرآن هي تاريخية أو تمثيلية لأجل العبرة) (٣٠).

و عن هذه المدعيات يرد الشيخ مرتضى المطهري (٣١) رحمه الله بقوله: (إن مثل هذا الكلام كلام وضع جداً،

(٢٩) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج ٧، ص ١٦٥-١٦٧.

(٣٠) تحليل لغة القرآن و اساليب فهمه، محمد باقر سعيدي روشن، ترجمة علي عباس الموسوي، ص ٣٧٦.

(٣١) الشيخ الشهيد مرتضى المطهري (١٩٢٠- ١٩٧٩ م) عالم دين و فيلسوف اسلامي شيعي.

فمن المحال أن يقوم الأنبياء و الذين منطلق نبوتهم هو الحقيقة، أن يقوموا ببيان الواقع و لو بنحو التمثيل. ففي اللغات الأدبية في هذا العالم تجد كثيراً مثل ذلك، سواء على لسان الحيوانات أو بالاعتماد على التمثيل. و أما القرآن، و النبي، و الأئمة و من تربى على هذا الدين، فمن المستحيل أن يتوسل بأمر غير مقدس لأجل الوصول إلى هذا الهدف المقدس، بأن يستخدم أمراً باطلاً لا حقيقة له، و لو بنحو التمثيل. و ينقل هو هذا الأصل-أي عدم إمكان استخدام وسيلة غير مقدسة لأجل الوصول إلى هدف مقدس-عن العلامة الطباطبائي في الميزان، و يصل إلى أننا لا شك لدينا في أن كافة القصص القرآني، كما ورد ذكره في القرآن، هو عين الواقع. و بعد أن يذكر القرآن قصة ما فلن نعود بحاجة إلى تأييد ذلك بأي تاريخ من تواريخ الدنيا) (٣٢).

(٣٢) المصدر السابق، ص ٣٧٦ نقلاً عن كتاب: سيرى در سيرة نبوي، مرتضى مطهري، ص ١٢٣-١٢٤.



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة (المصباح)

كما و يقول السيد الطباطبائي رحمته الله:
(فإن الآيات القرآنية و كذا ما نقل إلينا
من بيانات الأنبياء الماضين ظاهرة في
كونهم لم يريدوا بها المجاز و التمثيل،
بحيث لا يشك فيه إلا مكابر متعسف
و لا كلام لنا معه، و لو جاز حمل هذه
البيانات إلى أمثال هذه التجوزات جاز
تأويل جميع ما أخبروا به من الحقائق
الإلهية من غير استثناء إلى المادية المحضه
النافية لكل ما وراء المادة) (٣٣).

ثالثاً: الاقتصادية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾
[سورة الإسراء: ٢٧].

و قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾
[سورة الأنعام: ١٤١].

إن للقرآن الكريم نظرة اقتصادية

(٣٣) الميزان، ج ٢، ص ٣١٤.

خاصة، نابعة من حقيقة الحكمة الإلهية
و التي وضحتها آيات القرآن الكريم.
قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۝ (٣٢) وَسَخَّرَ
لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ (٣٣) وَءَاتَكُمْ مِنْ
كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ
اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

يقول السيد محمد باقر
الصدر رحمته الله: ((فهذه الفقرات
الكريمة تقرر بوضوح: أن الله تعالى قد
حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح
كل مصالحه و منفعه، و وفر له الموارد
الكافية لإمداده بحياته و حاجاته
المادية، و لكن الإنسان هو الذي ضيع
على نفسه هذه الفرصة التي منحها الله

(٣٤) آية الله العظمى السيد محمد باقر
الصدر (١٩٣٥ - ١٩٨٠ م) مرجع و
مفكر شيعي كبير، أعدم على يد النظام
الصدامي العفلي المقبور.

له بظلمه و كفرانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فظلم الإنسان في حياته العملية و كفرانه بالنعمة الإلهية هما السببان الأساسيان للمشكلة الاقتصادية في حياة الإنسان. و يتجسد ظلم الإنسان على الصعيد الاقتصادي: في سوء التوزيع. و يتجسد كفرانه للنعمة: في إهماله لاستثمار الطبيعة و موقفه السلبي منها^(٣٥).

و هذه حقيقة قرآنية؛ فالفساد و الإفساد هو من الإنسان.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [سورة الروم: ٤١].

لقد بين القرآن الكريم كيفية استهلاك الثروات وفق نظام اقتصادي إنساني متكامل يخدم الجميع و يراعي التنوع، و نذكر منه على سبيل المثال بعض الأسس المهمة في كيفية الاستهلاك الصحيح.

١. عدم الإسراف، و عدم التبذير:

(٣٥) اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص ٣٨-٣٨١.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [سورة الأعراف: ٣١].

٢. هناك محرمات يجب الاجتناب عنها، كما و أن هناك أشياء محللة كثيرة، الهدف من وراء كل ذلك قياس مقدار الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

٣. وسط كل ذلك لابد على الإنسان أن لا يطغى، و إلا فإن ذلك مدعاة لنزول النعمة، و نزول العذاب.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [سورة طه: ٨١].

٤. بالشكر من قبل الإنسان تدوم النعم و تزداد بركاتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٧].

و الشكر هو: عرفان النعم من المنعم، و حمده عليها.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة **المصباح** •

قال رسول الله ﷺ: ((ما فتح الله لعبيد باب شكرٍ فحزن عنه باب الزيادة)) (٣٦).
رابعاً: الاجتماعية:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

إن الذي يميز السنن والقوانين الاجتماعية القرآنية -التي تفسر النشاط الإنساني عموماً- أنها تقود متبعتها إلى الحق واليقين لتمثل -بواقعها الحقيقي- علماً قاطعاً لا تشوبه الأهواء ولا تعتريه الظنون، فيصدق عندئذ التنبؤ من خلال الإيمان بهذه القوانين بأن المجتمعات سوف تسعد في حياتها الدنيا عند التزامها بها و تشقى بمخالفتها، إذ أن السنن القرآنية في طبيعة الكون والأصول الإنسانية الاجتماعية ثابتة ليس لها تغيير ولا تبديل ولا تحويل، بخلاف النظريات والقوانين الاجتماعية الوضعية ذات الأصول المتحيزة التي لم تسلم من الأهواء والظنون والوقوع في

الأخطاء أو في الشطط و الأفرط، وهذا الجانب الذي يثبت فاعلية القوانين والسنن القرآنية، كما و ان تميزها يشكّل جانباً من جوانب الإعجاز العميقة التي تتجلى في صدق المعاني والقوانين القرآنية عند انطباقها على الواقع الإنساني والاجتماعي بصورة عامة.

ولا شك في أن استخلاص السنن والقوانين الاجتماعية القرآنية ليس بالأمر اليسير الذي يستطيع أن يقول فيه كل من شاء ما شاء، بل لا بد من مختصين يحللون عوامل الربط والتسبب والاطراد والانتظام في الظواهر الاجتماعية فضلاً عن المعرفة بقوانين الاستنباط من الواقع من جهة ومن القرآن من جهة أخرى، وذلك يقتضي المعرفة الدقيقة بالمفاهيم الاجتماعية القرآنية الكلية وما يندرج تحتها من مفاهيم جزئية أو أقل كلية وما ينشأ من تفاعلات بين هذه المفاهيم التي تترتب بصورة منهجية فتشكل النظريات المفسرة للفعل الاجتماعي.

إن مفهوم الضبط الاجتماعي



وطبيعته وماهيته في القرآن الكريم يرتبط بالقيم والمقاصد الكبرى، ولهذا فإن النظم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية والقواعد القانونية تقوم على المصالح الكلية التي يحددها القرآن الكريم، ولهذا فإن الضبط الاجتماعي بقواعده ووسائله المختلفة في القرآن يحكم المجتمع ولا يحتكم إليه، وهذا النموذج يقدم إطاراً شاملاً ويحدد معالم منهج متميز للضبط الاجتماعي يظهر تميز الأحكام القرآنية ويبرز إعجازها في هذه التشريعات.

قراءة في النماذج القرآنية:

إن النماذج القرآنية من المباحث المهمة في بحث (القواعد) و (الكليات القرآنية)، إذ لا يمكن أن نورد قاعدة ما ذات صبغة كلية من دون أن يمتد لها نموذج و لو واحد، فالقواعد و الكليات قائمة على النماذج التطبيقية، و يمكن حصر النماذج القرآنية في موردين عامين هما:-

١. نموذج إيجائي^(٣٧) و المراد به استعمال (٣٧) إيجاء: اسم، الجمع إيجاءات، مصدر

كلمة أو وصف أو فعل معين لإعطاء معلومة معينة بشكل غير مباشر، و ذلك عن طريق المثال، و القصة الهادفة، و ما شاكل ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠].
و قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

و قال تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَٰئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٤].

ف(الصابرون) و (المفلحون)

أوحى، و هو في اللغة: الإشارة و الكلام الخفي، و كل ما ألقيته إلى غيرك. و الإيجاء: يدل على ما يحدث في الذهن من فكر أو تصور بتأثير عامل خارجي. و لكلمة إيجاء مفهومان مختلفان: الأول: ان الفكرة الموحى بها تتولد في الذهن بتأثير عامل خارجي (كلمة، إشارة، حركة) لا بتأثير عامل داخلي. و الثاني: ان هذه الفكرة الخارجية تطعم ذهن الموحى إليه فتحرکه و تثير فيه فاعلية نفسية جديدة.



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة • المصباح

أوصاف عامة تعطي إيجاءات للاقتداء بها ممن يريد الدخول تحت قاعدة (الصابر) و (المفلح) لأن جزاءهم هو خير جزاء.

[سورة النحل: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٤].

أما (الكافرون) فهو نموذج إيجائي لأجل الاجتناب عن هذا النموذج الذي سيكون جزاءه أسوأ جزاء.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة لقمان: ١٢].

٢. نموذج حقيقي: وذلك بالإشارة إلى شخص موجود أو كان موجوداً، أو بالكلام عن نموذجاً على السامعين أن يعتبروا به، و النموذج الحقيقي هذا ينقسم على قسمين هما:

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: ٤٨-٤٩].

أولاً: النموذج الحقيقي الصالح: هو النموذج القدوة في العمل، النموذج الأسمى في القول و الفعل و الجد و المثابرة و القرب من الله تعالى، هو نموذج إنساني بكل معنى الكلمة.

ثانياً: النموذج الحقيقي الغير صالح: و هو النموذج المضروب للتحذير، و لأخذ العبرة في الاجتناب عنه و عن ما يفعله، و عن كل ما يؤدي إلى الارتسام برسمه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨].

و قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي﴾

و قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧٥﴾ [سورة القصص: ٤].

و قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

و قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة الجمعة: ٥].

(إن القرآن يعرض أنماطاً من نماذج النفوس البشرية على نطاق واسع. يشمل كل أنماط النفوس البشرية في أصالتها الفطرية. و في حالاتها كذلك. في هداها و في ضلالها. في رشدها و في غيها. في استقامتها و في إعراضها. في ارتفاعها و في هبوطها. في قوتها و في

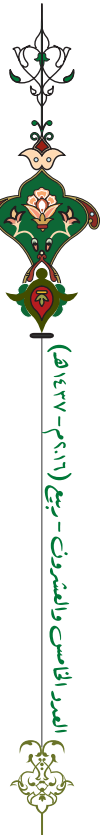
ضعفها. في سرها و في علانيتها. في فرديتها و في جماعيتها. في شتى صورها و أشكالها، و أوضاعها و أحوالها.. يعرض ذلك كله في حيز من التعبير يستحيل - لو لم يكن من عند الله - أن يسع هذا الحشد الكبير من الأنماط و النماذج، و الأحوال و الأطوار، و أن يصوره في دقة و عمق لا يبلغها الأسلوب البشري و لا في أضعاف هذا الحيز من التعبير! و يعرض الحقائق من خلال النماذج الفردية، كما أنه يعرض السنة الثابتة من خلال الحدث العارض... فأما المنهج القرآني فيعرض النفس الإنسانية كما هي في حقيقتها على النطاق الواسع الشامل، لأن العمود الأساسي في العرض هو حقيقة الإنسانية في شتى حالاتها، لا مذهب معين في النظر إليها...)^(٣٨).

مميزات النموذج القرآني

إن النموذج القرآني يعتبر النموذج الأسمى كونه قد جاء عن (حكمة

(٣٨) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ص ٣٦٧.





الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة **المصباح**

بالغة) من لدن أحكم الحاكمين، و لهذا النموذج ميزاته الخاصة به و التي يمكن ان نجمل منها بعض الميزات التي نعتقد بأنها الابرز و التي هي:

١. الواقعية: فالنموذج القرآني واقعي، و يتميز بصدقه الوجودي عند ايراده، فهو نموذج موجود- حقيقة-أما سابقاً أو حال نزول النص، فليس هناك أي نموذج قرآني غير واقعي أبداً، حتى و لو كان فرداً واحداً فقط.

٢. حكمويته: فإن للنموذج القرآني حكمة بالغة في ضربه فهو يتأطر بإطار (المثل) و (العبرة) و (الحجة). قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥].

و قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة النور: ٤٤]. و قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾

٣. رمزيته: إن النموذج القرآني يشكل رمزية كبرى في ضربه، و عند التعرض له، سواء أكان نموذجاً صالحاً، أم غير صالح.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣]. و قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُنَّ أَعْيُنُهُنَّ لِيَرْنَ سُلُوسَ رَبِّكَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠].

٤. التقديس الذاتي: فالتقديس الذاتي للنموذج القرآني (الصالح) لا ينفك عنه سواء أكانت قدسيته (تشريعية) أو (احترامية).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

و قال تعالى: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

المصادر والمراجع

١. الكافي، الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي البغدادي ثقة الإسلام (ت ٣٢٩هـ).
٢. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٥هـ).
٣. محاضرات في تفسير آيات الأحكام، الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد، العارف للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط ١، ٢٠٠٩ م.
٤. مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، مصر- القاهرة.
٥. المدرسة القرآنية، السيد الشهيد محمد باقر الصدر (ت ١٣٩٠هـ)، مركز الأبحاث و الدراسات التخصصية للشهيد الصدر (ت ١٣٩٠هـ)، ط ٢، ١٤٢٤هـ، قم- إيران.

٦. دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، تحقيق و تعريب: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.

٧. القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، عبد الخطيب عبد الكريم، مطبعة السنة المحمدية، مصر- القاهرة، ١٩٦٤ م.

٨. تحليل لغة القرآن و اساليب فهمه، محمد باقر سعيدي روشن، ترجمة: علي عباس الموسوي، دار الولاء، بيروت - لبنان، ٢٠١٤ م.

٩. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤ م.

١٠. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق: ابو الفضل الدمياطي، دار الحديث، مصر - القاهرة.

١١. مصنف ابن ابي شيبة في الأحاديث والآثار، عبد الله ابن محمد بن ابي



الكليات القرآنية بين التأسيس القواعدي والقواعد المؤسسة **المصباح** •

- شيبة (ت ٢٣٥ هـ)، ط ١، لبنان، ١٣. مجمع البيان في تفسير القرآن،
دار الفكر، ١٩٨٩ م.
١٢. تفسير التحرير و التنوير، محمد
الطبرسي، من أكابر علماء الإمامية
الطاهر بن عاشور (ت ١٩٧٢
م)، الدار التونسية للنشر، تونس،
١٩٨٤ م.
١٣. مجمع البيان في تفسير القرآن،
للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن
الطبرسي، من أكابر علماء الإمامية
في القرن السادس الهجري، دار
المعرفة للطباعة و النشر، بيروت -
لبنان، ط ١، ١٩٨٦ م.

